# أدب التوحيد في نهج البلاغة
## دراسة أسلوبية

**Monotheism Fiction in Nahjul- Balagha**

**Stylistic study**


أ.د. حسن حميد الفياض

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

قسم اللغة العربية

**Prof. Dr. Hassan Hamid Al-Fayyad**

**University of Kufa \ College of Basic Education**

**Department of Arabic language**

## ملخص البحث

تمثلت مباحث التوحيد في كتاب نهج البلاغة عبر خطبه، ورسائله، وسائر كلامه، وهي من الدقة والفصاحة والبلاغة بمكان ينحدر منه السيل ولا يرقى إليه الطير، وقد قرأتها قراءة المتأني، ورددتها ترداد المتأمل، وفتشت بين سطورها فعل الباحث عن ضالته، فما انقشعت دهشتي، ولا تبددت حيرتي، بل ازددت دهشة لدقيق ما فيه من مباحث علم التوحيد، مع كثرة تفصيل دقائقه وغوامضه وهو ما لا ينجلي بتأمل المتأمل، ولا بتدبر المتدبر، بل هو علم من ذي علم، ومشاهدة ببصيرة القلب، وهو القائل (عليه السلام) «أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى، قَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ قَالَ: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُوْنُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوْبُ بِحَقَائِقِ الإِيْمَانِ». ويتضح الأمر ببيان أن التوحيد لا يتوصل إليه بمجردة مشاهدة الخلق والتأمل فيه؛ لأن النظر والتأمل يقودان إلى معرفة الخالق والإذعان بوجوده، وهو ما عبر عنه (عليه السلام) بـ «وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ وَمُسَلِّمَةً لَهُ»، وقد بين هذا في موضع آخر بقوله (عليه السلام): «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ». أما التوحيد فيحتاج إلى إقامة الدليل عليه بعد معرفة الخالق، ويتم هذا بالتفكر بدلائل الخلق الذي عبر عنه بلفظ الأسماع؛ لأن السمع دليل على التفكر، فالإنسان العاقل لا يقبل كل ما يسمعه، بل يحيله في خاطره ويتنخّله ليختار لبابه، وقد مدح الله عباده الذين يتفكرون فيما يسمعون ويختارون أحسنه في كتابه العزيز بقوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر ١٧ - ١٨]. وقد سعت هذه الدِّراسة إلى تتبُّع أدب التوحيد في نهج البلاغة على وفق مباحث تناولت بها مسارات التوحيد في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) راصدًا أهمّ الأسس التي اعتمد عليها أمير المؤمنين (عليه السلام) في التقنين للبرهنة على معرفة الخالق وتوحيده.

## Abstract

The monotheism researches in Nahjul- Balagha are represented in speeches, letters and words which marked by accuracy, eloquence and rhetoric. I studied it carefully, and I am astonished to what's in it of monotheism researches with a lot of details. It's a science from Allah. About that Imam Ali (pbuh) said: "shall I worship whom could not I see him" They questioned: "how shall you see him?" he answered: "He could not be seen by eyes, he realized by hearts with faith". It's clear that monotheism couldn't be reached on watching creation and meditation, because it leads to knowing the creator. About that Imam Ali said: "He establishes evidences of creation and power which lead brain to him". Also he said "knowing him is the beginning of religion". However monotheism need evidence after knowing the creator which is done by thinking of creation evidences represented by hearing, since hearing is proof of thinking. Allah said "Those who listen to the word, and follow the best (meaning) in it: those are the ones whom Allah has guided, and those are the ones endued with understanding". This study tries to follow monotheism fiction in Nahjul- Balagha on researches deals with monotheism in prince of true believers sayings, observing the most important foundations used by Imam Ali to identify Allah and monotheism.

## المقدمة

الحمد لله استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعزَّته، واستعصامًا من معصيته، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

ليس من شكٍّ في أنَّ كتاب نهج البلاغة قد تسنَّمَ أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة والجمال، بعد القرآن الكريم وكلام النبيِّ (صلى الله عليه وآله)، وانحدر منه سيل من المعارف والعلوم لم تتهيأ لأحدٍ غير عليٍّ (عليه السلام)، بما اختطه لنفسه من اتّباع أثر القرآن الكريم والنبي العظيم (صلى الله عليه وآله)، ولا ريب في أنَّ من أهم العلوم وأدقّها علم التوحيد؛ إذ تبتني مباحثه على وجود الخالق- سبحانه-، وتوحيده، ونفي صفات المخلوقين عنه، وغيرها من المباحث، وفي كلِّ ذلك دقيق من التوصيف والتفريع والاستنباط.

وتقع أهمية هذا البحث في الحاجة الماسة إلى الرجوع للمنابع الصافية في توحيد الله -سبحانه- بعد أن برزت ظواهر إلحادية لأسباب كثيرة قد لا يكون الفكر أهم دوافعها، ولكنها بشكل عام تتكلّ على بعض الشبهات والمغالطات التي تتمظهر بمظهر الفكر، والتي يسهل فيها اصطياد بعض الشباب التي لم تقوَ عقيدته، ولم يتمترس بفهم قويم لآي الكتاب المبين، ولا بفقه دقيق لكلام النبي وآله الأطهار الذين هم دعائم التوحيد الخالص.

وقد اختط البحث لنفسه استقراء كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، واستجلاء المفاهيم التي أوردها في كلامه عن التوحيد بما ضمّه بين جنبيه كتاب (نهج البلاغة)، وقد أحسن الشريف الرضي جامع الكتاب في وصفه هذا النحو من العلم بقوله في آخر مقدمته: «وَيَمْضِي فِي أَثْنائِهِ مِنْ

عَجيبِ الكَلامِ فِي التَّوحيدِ وَالعَدْلِ، وتَنْزيهِ اللهِ سُبحانَهُ عَنْ شَبَهِ الخَلقِ، مَا هُوَ بِلالُ كُلِّ غُلَّةٍ، وَشَفاءِ كُلِّ عِلَّةٍ، وَجَلاءِ كُلِّ شُبْهَةٍ».

وانتظم البحث في تمهيد بيّن (المعرفة التوحيدية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثم تتابعت ثلاثة مباحث عن (وجود الخالق)، و(توحيد الخالق)، و(التوحيد وأسلوب النفي). وانتهى بالنتائج، ثم ثبت المصادر.

وأفاد البحث بعد كتاب (نهج البلاغة) من مجموعة من المصادر المتنوعة في علم الكلام، والتفسير، والتاريخ، واللغة، والصوت، والبلاغة، وغيرها.

والحمد لله أولًا وآخرًا وصلى الله على محمد وآله.

## التمهيد

### المعرفة التوحيدية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

نشأ علي (عليه السلام) في كنف رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقد رعاه النبي وأحاطه بعنايته مذ كان رضيعًا، فقد كان يدعو فاطمة بنت أسد (عليها السلام) أن تضع مهد علي (عليه السلام) إلى جوار فراشه ليحدثه ويناغيه[1]، وكبر علي (عليه السلام) وقد امتلأت روحه بأنفاس رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلزمه ولم يكن يفارقه، وقد وصف الإمام (عليه السلام) حاله مع رسول الله ومنزلته منه بقوله (عليه السلام):

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ

وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي»[٢].

وفي هذا الكلام بيان شافٍ لمن ألقى السمع وهو شهيد، فلقد كان اختيار رسول الله (صلى الله عليه وآله) له اختيارًا قصديًّا منذ البداية، ولم يكن لعارض أو أزمة[٣]. فنشأ علي (عليه السلام) في حجر النبي يسمع ترانيم الوحي، ويردد آيات القرآن، ويتلقى معارفه وأحكامه من النبي بالتفاصيل الدقيقة، ولم يفارق رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى بعد زواجه بفاطمة (عليها السلام)، إذ كان بيته إلى جوار بيوت النبي في المسجد النبوي الشريف، وكان يرصد له في الليل جزءًا من وقته يغذيه فيه بالعلوم والمعارف التي أودعها الله عنده[٤]، وبقيا على ذلك حتى التحق النبي (صلى الله عليه وآله) بالرفيق الأعلى.

وقد حبا الله عليا (عليه السلام) بالمواهب والمزايا المتنوعة التي أهلته لأن يكون رافع راية الإسلام الحقّ، والمنافح عنه بالفكر والسيف، وحسبك من ذلك أنَّه كان الأذن الواعية التي ذكرها الله -سبحانه- في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[٥]، وكان أقضى الأمة[٦]، وباب مدينة علم النبي (صلى الله عليه وآله)[٧]، فكانت معرفته التوحيدية نابعة من كتاب الله الكريم، ومما أفاضه عليه ابن عمّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بطول ملازمته له، فضلًا عمَّا عرف عنه من طول تأمله وعميق تفكره، وقد أشار إلى ذلك في جوابه لبعض سائليه: «فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَأَتَمَّ بِهِ، وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وآله) وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ؛ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ

مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ»[٨].

فظهر من كل ذلك علمه بتوحيد الله -سبحانه-، ولقد كان من دقيق وصفه، وكثرة ما يذكره من التفاصيل أن جعل كثيرًا من الناس يحارون في أمره، حتى ظنّ بعضهم أنَّه قد رأى ربَّه، ويكشف لنا النص الآتي في نهج البلاغة عن دهشة الناس من وصف عليٍّ ربَّه، فقد سأله ذعلب اليماني*: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ (عليه السلام): أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى، فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ؛ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ، تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ»[٩].

فالدهشة والحيرة بادية في سؤال ذعلب اليماني، (هل رأيت ربَّك... وكيف تراه؟)، وجاء الجواب بذكر صفات تؤكد أنَّ الرؤية لا تكون إلا بإدراك القلوب، لما فيها من التضاد، والتخالف والتباعد بين الصفة وشبهها من صفات البشر التي تدرك بالعيون.

ولم يكن لأحدٍ غير أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) مثل هذه المعرفة؛ إذ لم يظهر على لسان أحدٍ من الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم ما جاء على لسانه من علم التوحيد سعةً، ودقّةً، وتفصيلًا، حتى صدح بذلك غير واحد من أهل التحقيق قديمًا وحديثًا، ومن أولئك ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة، فقال في شرح بعض فصول التوحيد من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام): «واعلم أنَّ هذا الفن هو الذي بان به أمير المؤمنين

(عليه السلام) عن العرب في زمانه قاطبةً، واستحقَّ به التقدم والفضل عليهم أجمعين... ومعلوم أنَّ هذا الرجل انفرد بهذا الفن، وهو أشرف العلوم؛ لأنَّ معلومه أشرف المعلومات، ولم ينقل عن أحدٍ من العرب غيره في هذا الفنِّ حرفٌ واحد»[10].

ومن أولئك الأستاذ محمد أمين النواوي في حديثه عن نهج البلاغة، إذ يقول: «لقد كان عليٌّ في خطبه المتدفقة يمثِّل بحرًا خضمًّا من العلماء الربانيين، وأسلوبًا جديدًا لم يكن إلا لسيد المرسلين، وطرَق بحوثًا من التوحيد لم تكن تخضع في الخطابة إلَّا لمثله، فهي فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله، فدانت لبيانه، وسلست لمنطقه»[11].

وأشار إلى ذلك الأستاذ عباس محمود العقاد في عبقريته قائلًا: «في كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية، تتَّسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد، وأصول التأليه وحكم التوحيد»[12].

وخلاصة الأمر: أنَّ معرفة الإمام أمير المؤمنين التوحيدية تشكلت من القرآن الكريم، والنبي العظيم، وما استصفاه من دقيق فكره ورائق تأمُّله، فضلًا عمَّا وهبه الله إيَّاه بوصفه وصيّ النبيّ والقائم مقامه من بعده.

## المبحث الأول: وجود الخالق

أول ما يبحث عنه في علم التوحيد هو وجود الخالق، وهو مقدمة لهذا العلم؛ إذ لا معنى لتوحيد الخالق من دون إثبات وجوده، وقد سلك المتكلمون في ذلك سبلًا عدّة، كان أقربها إلى الفطرة، وأوضحها في الأذهان هو (برهان النظم)؛ لأنَّه «يتجاوب مع جميع العقول على اختلاف سطوح تفكيرها»[13]، ويقوم هذا الدليل باختصار على أنَّ (الاهتداء إلى وجود الله -سبحانه- يكون عن طريق مشاهدة النظام

الدقيق البديع السائد في الكون)[١٤]، ويحتاج هذا البرهان إلى مقدمات أربع:

الأولى: إنّ ما يتصوره الإنسان في ذهنه له واقع خارجي، وما موجود في ذهن الإنسان هو انعكاس لذلك الواقع.

الثانية: إنَّ عالم الطبيعة خاضع لنظام محدد، وإنَّ كل ما في الكون لا ينفك عن النظم والسنن التي كشفت العلوم الطبيعية عن بعضها.

الثالثة: أصل العليَّة، ويعني أنَّ تكوّن الشيء بلا مكوّن، وتحقّقه بلا علّة أمر محال لا يعترف به العقل.

الرابعة: إنَّ دلالة الأثر تتجلَّى بصورتين:

(أ) وجود الأثر يدل على وجود المؤثِّر، على نحو ما نقل عن أعرابي قوله: البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير.

(ب) إنَّ لدلالة الأثر بعدًا آخر هو الكشف عن خصوصيات المؤثِّر من عقله وعلمه وشعوره، فوجود بناء جميل ومفيد يدلُّ على وجود بنَّاءٍ عاقلٍ عالمٍ بما تحتاجه صنعته، في حين لا نجد هذه الصفات للسيل الذي يجرف مواد البناء نفسها ليلقيها بعيدًا متجمعة أو مشتتة، على الرغم من أنَّ كلاً منهما (البنّاء والسيل) أثّر في مواد البناء نفسها[١٥].

وقدد تردد هذا البرهان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[17]، وغيرهما كثير.

وقد انتهج الإمام علي (عليه السلام) هذا النهج في خطبه التوحيدية، فتكرر عنده الاحتجاج لوجود الخالق -سبحانه- ببرهان النظم، وكان ممَّا جاء فيها قوله (عليه السلام): «زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»[18].

فقد انتظم برهانه بما عرف عنه من بلاغة عالية، تتمازج فيها رصانة التركيب بعمق الدَّلالة في إطار من الموسيقى الموحية؛ إذ حقق السجع المتوازي -وهو أن يراعى في الكلمتين الوزن وحرف السجع[19] -في النص وظيفةً دلاليةً تتعاشق مع البعد الصوتي لإحداث أثرٍ فاعلٍ في المتلقي، ويتحقق ذلك بهيئة الفاصلة وصوتها، وتتركز بؤرة النص في الجملتين الأخيرتين اللتين تنتهيان بالسجعتين (بانٍ ... جانٍ)، فقد كشف فيهما عن برهان النظم، وهو الدليل الذي تقوم عليه جلّ محاولات اثبات وجود الصانع -جل شأنه-، وقد نسج هذا الدليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري في بنية جمعت في دلالتها بين طرفين جامعين لكلِّ أبعاد الأثر والمؤثر على النحو الآتي:

وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ كل أثر عظيم له مؤثر.

أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ كل أثر حقير له مؤثر.

وكان التنكير الظاهر في الجملتين دالًّا على العموم، فلا مناص من الاعتراف بوجود الخالق لهذا الكون ما دام لا ينفك أثر جليلا كان أم

حقيرا عن مؤثره.

وقد جاءت فاصلتا السجعتين (بانٍ، جانٍ) على هيئة اسم الفاعل المنقوص في ختام جملتي الاستفهام الانكاري للكشف عن اضطرار الأثر إلى مؤثره وإن كان غائبًا عن المشاهدة لاستشعار الحاجة إليه، فجاء تعويض الحرف المنقوص بالتنوين دلالة على حضور الغائب الذي زعموا عدم وجوده لتناهي حسَّهم دونه.

وجاء المقطع الصوتي لفاصلتي السجع في الجملتين على هيئة مقطع طويل مديد مقفل بصامت[٢٠] -في حالة الوقف- (بانْ، جانْ) بعد ثلاثة مقاطع صوتية مكررة، اثنان منها طويلان مغلقان متتاليان (منْ، غيْ) يمثلان وقفتين صوتيتين تفسحان المجال لمقطعٍ ثالثٍ قصير منفتح (رِ)[٢١] ليهيئ المتلقي للتأثر بمد الصوت للمقطع الصوتي للسجعتين الباعث على التنبه والتفكر، وقد كان لصوت النون بوصفه صوتًا مجهورًا مرققًا[٢٢] رنَّة موحية تتعاشق مع المدّ لإحداث الأثر المطلوب.

لقد كان اختيار الأصوات بصفاتها ومقاطعها في فواصل السجع مترابطًا مع نسج الدَّلالة المقصودة في الاستدلال على الخالق -سبحانه- ولم تقف عند حد إحداث الأثر الفني والاستمتاع به.

وإذا كان للمستوى الصوتي أثره الفاعل في الاستدلال على وجود الخالق في النَّص السابق فإنَّنا نجد في نصٍّ آخر أثر المستوى التركيبي واضحًا جليًّا؛ إذ بنى الإمام نصَّه على نحوٍ تصاعديّ مستعينًا بزمن الفعل وما أسند إليه من الضمائر؛ ليقود المتلقي إلى النتيجة التي رسمها له، نرى ذلك في قوله (عليه السلام): «**وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا**

عَذَابَ الْحَرِيقِ؛ وَلَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ. أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ؟ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ. انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا، لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ. وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ»[٢٣].

في هذا النص خمس فقرات متتابعات متسلسلات، انتقل فيها الخطاب متدرجًا من العموم إلى الخصوص، ومن السعة والشمول إلى الدقة والتقييد، ومن الغيبة إلى الحضور في التفات يجعل الوعي حاضرًا والفكر عاملًا للخلوص إلى النتيجة المقصودة التي قاد العقول إليها، فقد نظَّم أمير المؤمنين (عليه السلام) خطابه بذهن وقَّاد، ودقةٍ عاليةٍ، وبناءٍ متينٍ ليهيئ المتلقي للانتقال في فكره برشاقةٍ وسلاسة إلى ما قاده إليه، وقد تمثَّل هذا البناء على النحو

الآتي:

بدأ المقطع الأول من النص بقوله (ولو فكَّروا)؛ إذ أسند الفعل الماضي إلى جماعة الغائبين، وجعل مورد التفكير عامًا (فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ...)، مستعملاً التركيب الاسمي الدال على الثبوت والدوام؛ ليكون ناتج الدَّلالة (لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)، بيد أنَّ هذه الثمرة من التفكر لا تجنى؛ لأنَّ (الْقُلُوب عَلِيلَة وَالْبَصَائِر مَدْخُولَة)، في إشارة جميلة إلى ضرورة إعمال الفكر للوصول إلى الغاية التي سيقود المتلقي إليها.

إما المقطع الثاني فبدأه بالتفات من الماضي إلى المضارع مع إسناد الفعل إلى جماعة الغائبين الغافلين (ألا ينظرون)، وكان مورد النظر أخصَّ من المقطع الأول (إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ)، فاستعمال الفعل (ينظرون) بمادَّته وهيأته أوفق مع السياق من استعمال الأفعال الدالة على التفكر، لأنَّ المورد يدعو إلى مشاهدة الخلق، والتأمل فيه، ويخص صغار الخلق لأنَّه أدعى للعجب والدهشة، وليهيئ المتلقي للانتقال إلى المقطع الآتي.

بدأ المقطع الثالث بالالتفات من الغيبة إلى الحضور صادمًا لغفلة المتلقين بالخطاب المباشر إلى جماعة الحاضرين (انظروا)، وليكون مورد النظر أخصَّ ممَّا سبق «**إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا؟ تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا**».

ليكشف عن ملاحظة دقيقة لحياة

كائن حيٍّ لا يأبه له الناس، ولا يقيمون له وزنًا، فيدعوهم بالخطاب المباشر إلى النظر والتأمل والاعتبار؛ ليكون ناتج الدلالة (لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ)، لينهي في هذا المقطع مرحلة النظر والتأمل، ويفتح الباب أمام التفكر في المقطع الرابع.

يبدأ هذا المقطع بالتفات ثالث من جماعة المخاطبين إلى المخاطب المفرد باستعمال الفعل (فكّرتَ) المسند إلى تاء الفاعل المفتوحة، ليفسح المجال أمام المتلقي لإعمال فكره من دون إكراه بدلالة أسلوب الشرط غير الجازم (لو)، وليقوده برفق إلى مورد التفكر «فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا»، وهو ما لا يلحظ ببصر، ولا ينال إلا بالتفكر ولذا ناسبه استعمال الفعل (فكّرت)؛ لكون المورد أكثر خصوصية ودقة من كلِّ ما مرَّ سابقًا، ليصل به إلى جواب الشرط «لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً»، وليقود المتلقي إلى نتيجة الدلالة للمقاطع الأربعة السابقة «فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا»، وهو ناتج برهان النظم القائم على إثبات وجود الخالق من مشاهدة خلقه والتأمل فيه، وليفتح الباب أمام إثبات توحيده في المقطع القادم بختام هذا المقطع بقوله: «لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

أما المقطع الخامس الذي هو ختام النص موضع البحث فقد بدأه بتأكيد الحضور في ذهن المتلقي، وإدامة التفكر بعمق وتحقيق، متوسلًا إلى ذلك بأسلوب الشرط غير الجازم مع ما يتبعه من جملة الشرط «وَلَوْ

ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ»، ليؤشر إلى أنَّ ناتج الدَّلالة في جواب الشرط يحتاج إلى أبعد من النظر والتأمل؛ لأنَّه قائم على القياس والاستنباط الناتجين عن عمق التفكر وقوة الربط، ليؤدي إلى «مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ»، ليعلن الغاية من التفكر في الخلق وهو الوصول إلى توحيد الخالق بعد أن قادت مشاهدة الخلق إلى معرفة الخالق، فالتوحيد نتيجة لا تنال إلا بإعمال الفكر، وهو ما دعا الإمام (عليه السلام) إلى تعليل هذه النتيجة بقوله: «لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ».

لقد كشف لنا النص السابق بمقاطعه الخمسة عن تسلسلٍ فكريٍّ متقنٍ وتدرج أسلوبي رفيع في عرض موضوع الخطاب، بدأ من عموم النظر لينتهي إلى دقة الفكر، ولينقل المتلقي إلى الوصول إلى النتيجة المتوخاة بسلاسة وترابط، وليسجل علو كعب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في بلاغة الخطاب، وتفرده في عرض دقائق الفكر وغوامض العلم بعرض أدبي رشيق، وأسلوب خطابي شيِّق.

## المبحث الثاني: توحيد الخالق

يحتاج التوحيد إلى مستوى أعلى من التفكر للاستدلال عليه، وهو ما لحظناه في المقطع الأخير من النص السابق؛ إذ احتاج فيه إلى المقايسة، والمقارنة، والاستنباط للوصول إليه، في حين كان مشاهدة الخلق والتأمل فيه كافيان للقول بوجود الخالق.

وقد بيّن الإمام (عليه السلام) ذلك مستعينا ببعض ألوان البيان العربي، وهو ما يدخل ضمن المستوى الدَّلالي في قوله (عليه السلام): «ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ

وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ وَمَسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ»[٢٤].

فقد جازت لفظة (نَعَقَتْ) معناها الذي دلت عليه في الدَّلالة الظاهرة إلى معنى عميق بإسنادها إلى غير ما تسند له في معناها المعجمي، فالنعيق صوت الراعي حين يصيح بغنمه[٢٥]، وهنا أسندت إلى أمر معنوي (دلائل) على نحو الاستعارة المكنية التخيلية، إذ شبهت الدلائل بالراعي حال صياحه بغنمه زجرًا على نحو التخييل، وحذف المشبَّه به (الراعي)، وبقي المشبَّه (الدلائل) وعملية التخييل؛ لرسم صورة في غاية الروعة فنًّا، ودقة الدلالة معنى.

ويتضح الأمر ببيان -كما مرّ سابقًا- أنَّ التوحيد لا يتوصل إليه بمجردة مشاهدة الخلق والتأمل فيه؛ لأنَّ النظر والتأمل يقودان إلى معرفة الخالق والإذعان بوجوده، وهو ما عبَّر عنه (عليه السلام) بـ «وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ وَمَسَلِّمَةً لَهُ»، وقد بين هذا في موضع آخر بقوله (عليه السلام): «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»[٢٦].

أما التوحيد فيحتاج إلى إقامة الدليل عليه بعد معرفة الخالق، ويتم هذا بالتفكر بدلائل الخلق الذي عبر عنه بلفظ الأسماع؛ لأن السمع دليل على التفكر، فالإنسان العاقل لا يقبل كل ما يسمعه، بل يجيله في خاطره وينخله ليختار لُبابه، وقد مدح الله عباده الذين يتفكرون فيما يسمعون ويختارون أحسنه في كتابه العزيز بقوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٢٧].

ويأتي جمال هذه الصورة الاستعارية التي رسمها أمير المؤمنين (عليه السلام) من وجوه عدة على النحو الآتي:

١. اختيار الاستعارة المكنية التخيلية أريد به الإشارة إلى أنَّ توحيد الخالق لا يوصل إليه إلا بإعمال الفكر، مثلما هي الاستعارة المكنية التخيلية تحتاج إلى تأمُّلٍ في اقتناصها.

٢. اختيار الجمع (دلائل) لبيان أنَّ أدلة التوحيد كثيرة، وهو أمر لا يتعارض مع ما ذكر في النقطة السابقة؛ لأنَّ الخلل في العقول لا في الدلائل، وهو ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٢٨].

٣. اختيار الفعل (نعقت) بأصواته الثلاثة المجهورة[٢٩] يشير إلى أنَّ دلائل التوحيد من الوضوح بمنزلة صوت الراعي الزاجر لغنمه، وأنَّ غفلة العباد عنها كغفلة الغنم التي لا تستفيق إلَّا بزجر صاحبها المدبِّر لشأنها، وكذلك دلائل التوحيد أقامها صاحبها المدبِّر لخلقه، الرحيم بهم زجرًا لهم عن الغفلة عنه.

٤. أدَّت الصورة الاستعارية وظيفتها الفنية على النحو الذي أدَّت به وظيفتها الدَّلالية في بيان الفكرة التي أراد الإمام (عليه السلام) عرضها، وفي الأثر المتوخَّى منها لدى المتلقي.

## المبحث الثالث:
## التوحيد وأسلوب النفي

رصد البحث شيوع أسلوب النفي في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في التوحيد بما يشكل مهيمنة أسلوبية تستدعي الوقوف عندها، والبحث عن أسبابها، فقد تكرر أسلوب النفي في إحدى خطبه (٩٧) مرة[٣٠]، وتكرر في خطبة أخرى (٩٢) مرة[٣١]،

ولا تكاد تخلو خطبة ولا كلام له (عليه السلام) في التوحيد من ظهور النفي فيها، حتَّى قصار كلمه، فقد سُئل يومًا عن التوحيد فأجاب (عليه السلام): «التَّوْحِيدُ أَنْ لا تَتَوَهَّمَهُ»(٣٢).

لقد دعاني هذا التكرار الذي شكل ظاهرة جلية، ومهيمنة أسلوبية إلى البحث عن أبعاده النفسية والعقدية، هذه الأبعاد التي تنصهر عند أمير المؤمنين (عليه السلام) في بوتقة إيمانية واحدة تصدر عنها كلُّ خلجاته وأفكاره ورؤاه، ويعبِّر عنها بأقواله وأفعاله، ويبدو لي أنَّ مرجع ذلك هو ما كان يعرف عن عليٍّ (عليه السلام) من توحيد الله الخالص عن كلِّ شائبة.

والسؤال هنا كيف يكون التوحيد الخالص سببًا لشياع أسلوب النفي في كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)؟.

الجواب يظهر في كلامه (عليه السلام) في أول خطب نهج البلاغة، وهو يتحدث عن توحيد الخالق على النحو الآتي:

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ»(٣٣).

فالتوحيد الخالص عند أمير المؤمنين (عليه السلام) يكون بنفي الصفات عن الله -سبحانه- لأن «مَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّه»(٣٤).

إن الصفات التي نزَّه أمير المؤمنين (عليه السلام) ساحة الحق عنها بنفيها عنه سبحانه هي صفات المخلوقين، فقد جاء في وصفه الملائكة الذين

هم أعلم خلق الله به وأخوفهم له وأقربهم منه[٣٥] قوله: «لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ»[٣٦].

إنَّ نفي الصفات أساس التوحيد الخالص عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولعمق هذا الاعتقاد في كيانه كله ظهر جليًّا في كلامه عن توحيد الله، فكان شيوع أسلوب النفي مردَّه إلى هذا الاعتقاد الخالص، ليكشف عن وعي عميق، وحضور ذهني عالٍ، وتمازج عجيب بين اعتقاد المنشئ العميق في نفسه وكلامه بوصفه مظهرًا تعبيريًا عنه.

ومن النصوص التي ظهر أسلوب النفي فيها جليا قوله (عليه السلام):

«كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ، أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا»[٣٧].

ومنها قوله (عليه السلام):

«لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ، عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ»[٣٨].

ومنها قوله (عليه السلام):

«لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ، هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ، خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ، حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا، لَا تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا يُقَالُ لَهُ مَتَى

وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِحَتَّى، الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ مِمَّ وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ فِيمَ، لَا شَبَحٌ فَيُتَقَصَّى وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى، لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ»[٣٩].

## الخاتمة

اجتنى البحث مجموعة من الثمار على النحو الآتي:

• إنَّ الإيمان بالخالق تقوده إليه الفطرة السليمة بمشاهدة شواهد الخلق، ولا يحتاج إلى عمق في التفكير.

• يترتب على ذلك أن عدم الإيمان بوجود الخالق مردّه إلى انحراف عن الفطرة وصفه الإمام بقوله: «الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ».

• إن برهان النظم هو أكثر البراهين احتجاجًا به على وجود الخالق؛ لأنَّه قائم على إثبات الخالق بمشاهدة آثاره، وقد استعمله الإمام بطريقة دقيقة وجميلة موظِّفًا الصوت توظيفًا فعالًا.

• توحيد الخالق لا بدّ له من تدبّر وتفكير أعمق، فهو مرحلة بعد إثبات وجوده، ويحتاج إلى إقامة الدلائل عليه، وقد رتبه الإمام منطقيًّا بقوله: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ».

• ظهور النفي في الخطب التوحيدية بما يمثل مهيمنة أسلوبية، وقد جاء في بعض الخطب بشكلٍ لافت؛ إذ تكرر في خطبة الأشباح (٩٧) مرّة، و(٩٢) مرّة في خطبة أخرى.

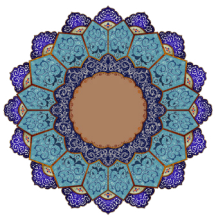

## الهوامش

١) ينظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة، الإربلي ١/ ٦١. وبحار الأنوار، المجلسي ٣٥/ ٩. والصحيح من سيرة الإمام علي، جعفر مرتضى العاملي ١/ ١١١.

٢) نهج البلاغة، تحقيق قيس العطار ٤٠١- ٤٠٢.

٣) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ١٦٢. وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧- ٥٨. وبحار الأنوار، المجلسي ٣٥/ ٢٤- ٢٥. وقد ورد فيها أنَّ أزمة اقتصادية ضربت قريشًا ممَّا دفعت النبي أخذ علي بعد أن بلغ مرحلة التمييز من عمِّه أبي طالب؛ للتخفيف عنه لكثرة عياله، وهي لا تتوافق مع ما أوردته عن علي في المتن، فضلًا عن أنَّها غير مقنعة؛ لكونها ذكرت طالبًا وعقيلًا وجعفرًا ضمن عيال أبي طالب، وهم جميعًا قد بلغوا مرحلة الرجولة. وقد ناقشها مستفيضا الدكتور صلاح الفرطوسي في كتابه (وما أدراك ما علي) بما يفنِّد أن يكون الأمر بسبب فاقة أو أزمة اقتصادية. ينظر ١/ ٧٥- ٨٢.

٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٦/ ٢١٧. وبحار الأنوار، المجلسي ٣٢/ ١٦٩. ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي ٥/ ٣١٧.

٥) ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري: ٢/ ١٢١. وتفسير الطبري ٢٩/ ٦٩. والكافي، الكليني ١/ ٤٢٣. وتفسير فرات الكوفي: ٤٩٩. والتبيان في تفسير القرآن، الطوسي ١٠/ ٩٨. وأسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ٢٩٤. وشواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ٢/ ٣٦٣. وروضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ١٠٥. ومجمع البيان، الطبرسي: ١٠/ ١٠٨. والدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي: ٦/ ٢٦٠. وفيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ٣/ ٦٠. والآية هي ١٢ من سورة الحاقة.

٦) ينظر: شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ١/ ٩١. وكشف الخفاء، العجلوني: ١/ ١٦٢.

٧)ينظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمد بن سليمان الكوفي: ٢/ ٥٥٨. والإرشاد، الشيخ المفيد ١/ ٣٣. والأمالي، الشيخ الصدوق: ٦٥٥. والمناقب، للخوارزمي: ٨٢.

٨) نهج البلاغة: ١٦١.

٩) المصدر نفسه: ٣٤٢.

* من أصحاب أمير المؤمنين، وكان ذرب اللسان، بليغًا في الكلام، شجاع القلب. تنظر ترجمته في أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٦/ ٤٣١.

١٠) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٩/ ٢٥٦- ٢٥٧.

١١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني: ١/ ١١١، نقلا عن جولات إسلامية: ٩٩ وما بعدها.

١٢) عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد: ١٩٤.

١٣) محاضرات في الإلهيات، الشيخ جعفر السبحاني: ١٥.

١٤) المصدر نفسه: ١٥.

١٥) الإلهيات، الشيخ حسن محمد مكي العامليك: ٣٣- ٣٧.

١٦) سورة البقرة: ١٦٤.

١٧) سورة الغاشية: ١٧- ٢٢.

١٨) نهج البلاغة: ٣٦١.

١٩) معجم التعريفات، الشريف الجرجاني: ١٠١.

٢٠) ينظر: علم الأصوات اللغوية، د. مناف مهدي الموسوي: ١٢١.

٢١) ينظر: المصدر نفسه.

٢٢) ينظر: المصدر نفسه ٧٤.

٢٣) نهج البلاغة: ٣٥٩- ٣٦٠.

٢٤) المصدر نفسه: ٣١٢.

٢٥) معجم مقاييس اللغة مادة: ن ع ق.

٢٦) نهج البلاغة: ٤٥.

٢٧) سورة الزمر: ١٧- ١٨.

٢٨) سورة يوسف: ١٠٥- ١٠٦.

٢٩) ينظر: علم الأصوات اللغوية: النون ٧٤، القاف ٨٣، العين ٨٤.

٣٠) ينظر: نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٨٦، ٣٦٣- ٣٧٠.

٣١) ينظر: المصدر نفسه خطبة الأشباح: ١٥٩- ١٧٨.

٣٢) نهج البلاغة: ٧٢٦.

٣٣) المصدر نفسه: ٤٥- ٤٦.

٣٤) المصدر نفسه: ٤٦.

٣٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٠.

٣٦) المصدر نفسه: ٤٨- ٤٩.

٣٧) المصدر نفسه: ٤٦.

٣٨) المصدر نفسه: ٣٦٣.

٣٩) المصدر نفسه: ٣٠٧.

## المصادر


• القرآن الكريم.

• الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري (ت: ٤١٣ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

• أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط) ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

• أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت: ١٣٧١ هـ)، تحقيق وتخريج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان، (د ط)، (د ت).

• الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الشيخ حسن محمد مكي العاملي، محاضرات الشيخ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

• الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت: ٣٨١ هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية- مؤسسة البعثة، ط١، قم ١٤١٧ هـ.

• أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤٩٣هـ- ١٩٧٤م.

• بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت: ١١١١هـ)، الناشر مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

• تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (د ط)، بيروت- لبنان.

• التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ.

• تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

• تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي (ت: ٣٥٢هـ)، تحقيق محمد كاظم، ط١، طهران، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

• الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ)، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، (د ط)، (د ت).

• روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري (ت: ٥٠٨ هـ)، منشورات الشريف الرضي- قم (د ط)، (د ت).

• السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت: ٢١٨ هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، (د ط)، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م.

• شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان المغربي (ت: ٣٦٣ هـ)، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤١٤هـ.

• شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني (ت: ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٨هـ- ١٩٥٩م.

• شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحافظ عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني (ت: ق٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط١، ١٤١١ هـ- ١٩٩٠م.

• الصحيح من سيرة الإمام علي (عليه السلام)، السيد جعفر مرتضى العاملي، مطبعة دفتر تبليغات إسلامي، ط١، ١٤٣٠ هـ.

• عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، (د ط)، ١٩٦٧.

• علم الأصوات اللغوية د. مناف مهدي الموسوي، دار الكتب العلمية- بغداد، ط٣، ١٤١٩هـ- ٢٠٠٧م.

• فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

• الكافي- الأصول، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الشيخ الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، المطبعة حيدري، طهران، ط٥، ١٣٦٣هـ ش.

• كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، اسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (ت: ١١٦٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٠٨هـ-

١٩٨٨م.

• كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن أبي الفتح الإربلي (ت: ٦٩٣ هـ)، دار الأضواء، بيروت- لبنان، (د ط)، (د ت).

• مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي تحقيق: لجنة من العلماء (ت: ٥٤٨ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

• محاضرات في الإلهيات، الشيخ جعفر سبحاني، تلخيص الشيخ علي الرباني الكلبايكاني، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، (د ط) (د ت).

• مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني الخطيب، نشر دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

• معجم التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ)، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، (د ت).

• معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مكتب الاعلام الإسلامي، (د ط) ١٤٠٤هـ.

• المناقب، الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي (ت: ٥٦٨ هـ)، تحقيق الشيخ مالك المحمودي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤١٤هـ.

• مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، محمد بن سليمان الكوفي، من أعلام القرن الثالث الهجري، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مطبعة النهضة، قم، ط١، ١٤١٢هـ.

• منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت: ١٣٢٤ هـ)، تحقيق سيد إبراهيم الميانجي، المطبعة الإسلامية، إيران- طهران، (د ط)، (د ت).

• نهج البلاغة، تحقيق: قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، قم، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

• وما أدراك ما علي، الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي، ضمن إصدارات قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة، (د ط)، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.